أهم المدارس الاستشراقية وترجمة القرآن الكريم

Orientalists Schools & Holly Quran Translation

د/ ولهاصي عزيز عبد الإله

قسم اللغة الإنجليزية – جامعة جيلالي اليابس -سيدي بلعباس (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/02/19 تاريخ القبول:2019/03/01 تاريخ النشر: 2019/03/19

ملخص: لقد حبانا الله بكتاب لا يزال إلى يومنا هذا محط إعجاب وانبهار العالم، أنه القرآن الكريم، ليس فوقه شيء يعلو ولا يعلى عليه، فبعد العرب الذين انكبوا عليه دراسة وتفسيرا وتأويلا، نجد من الأجانب من تفنن في محاولة ولوجه وفهمه ثم استيعابه، ولعل سبيلهم إليه كان عن طريق نسخه المترجمة كونهم لا يفقهون لغة تنزيله التي استعصت على العرب أنفسهم، وكان ملاذهم لأجل ذلك الكتب المترجمة، التي بدأت مع المهتمين بالدراسات العربية منهم والذين يطلق عليهم لقب" المستشرقون"، فمن هم المستشرقون يا ترى؟ وكيف تعاملوا مع القرآن الكريم؟

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ الترجمة؛ المستشرقون.

***Abstract** : Allah Had Granted us a Book still attracting people's attention all around the world; It is The Holly Quran. Nothing rises nor gets over It. After that the Arabs had been fully dedicated to studying and analytically explaining ,then interpreting It, it was the turn of foreigners managing to understand it and meanings through its translated versions since the original was misunderstood, though even Arabs very often found it difficult to understand. Foreigners interested in Arabic studies sought understanding through translated books ,they were called" Orientalists". Who are they then? And how did they tackle The Quran ?*

***Key Words:** The Holly Quran; Translation; Orientalists.*

المستشرقون:

المستشرقون هم أولئك "الأساتذة والباحثون الأكاديميون الغربيون الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية، والحضارة العربية وبقضايا العالم العربي وبالدين الإسلامي"[1]، أو كما ورد في تعريف أخر هم" طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق، والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق."[2]، وبمعنى 'ام المستشرقون هم " الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"[3].

وبذا يكون الاستشراق دراسة العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية ومقوماتها السياسية والاقتصادية والتاريخية والعقائدية واللغوية، ومحاولة تفسير هذه الحضارة ومقوماتها تفسيرا ماديا بحتا يتفق مع منهجهم الذي وضعوه حتى يسيطروا على العالم الإسلامي.

عرف العالم عدة مستشرقين من جنسيات مختلفة، استطاعوا أن ينظموا أنفسهم خلال حقب متتالية في فرقعمل منظم. فمنهم من قاد حملات علمية متخصصة لجلب كل فنون المشرق،ومنهم من أسّس مدارس داخل بلاده لترجمة الواردات.

1 أهم المدارس الاستشراقية:

قبل الخوض في المستشرقين وترجماتهم علينا التعرف على أشهر المدارس الاستشراقية لغرض الوقوف على خلفيات كل مدرسة، وهدفها من الترجمة ثم طريقتها في ذلك.

✓ المدرسة الفرنسية

يمثل الاستشراق الفرنسي لوحة كبيرة رسمت ملامحها في القرن السادس عشر، وقد لعبت فرنسا دوراً هاماً في الاستشراق منذ تأسيس مدرستي ريمسوشارتر لتدريس اللغة العربية في باريس وكرسي للدراسات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإسلامية في جامعة السوربون، التي ألحق بها معهد الدراسات الإسلامية[4]، ومنذ الثورة الفرنسية 1789 أنشأت مؤسسة جديدة هي مدرسة اللغات الشرقية وكانت اللغات التي تدرس بموجب تلك المعاهدة هي العربية الفصحى والعامية وبوسعنا أن نعتبر أن العقد الأخير من القرن الثامن عشر مثل انطلاقه فعلية للدراسات الشرقية الفرنسية[5].

وبدا الاهتمام بالمؤلفات الشرقية واضحا في المصنف الشهير (وصف مصر Description de L'Egypte) وهو جهد ضخم للعلماء المرافقين للحملة الفرنسية على مصر. وتأسست بعد الحرب العالمية الثانية عدة كراسي لتدريس اللغة العربية والأدب والحضارة والتاريخ والفلسفة الإسلامية. ومن أهم أعلام تلك المدرسة: إرنست رينان ولويس ماسينيون وليفي بروفنسال ومكسيم رودنسون.

ويمكن إيجاز أهم خصائص هذه المدرسة في الآتي[6]:

- تمتاز تلك المدرسة بالشمول والتعدد فهي لم تترك ميدانا من ميادين المعارف الشرقية إلا وتناولته بحثا أو نقدا أو تمحيصا سواء في جانب اللغات أو آدابها أو التاريخ والجغرافيا أو مقارنة الأديان أو الآثار والفنون أو القانون.
- تعرضت هذه المدرسة للشرق بأكمله على امتداده الجغرافي كاملا ولم تقتصر على بقعة واحدة منه.
- اهتمت كذلك بفقه اللغة العربية ونحوها ولهجتها العامية كما عملت على الدعوة إلى تمجيد العامية ومحاولة إحلالها بديلا للفصحى.
- لم تقتصر هذه المدرسة على دراسة تراث العرب فحسب ولكنها تناولت تراث الفرس والأتراك أيضا.

✓ **المدرسة البريطانية**

يعد أدلارد دو باث **Adélard de Bath** (1070-1135) من أوائل الانجليز الذين تعلموا العربية وقد عني بها عناية كبيرة ودرس في صقلية والأندلس ومصر ولبنان وأنطاكية واليونان[7] وتثقف بثقافة العرب إلى أقصى حد ممكن حتى فضل مذهبهم العلمي والبحثي على المناهج الأخرى جميعا[8].

ويأتي من بعده جورج سال **George Sale** (1697م- 1736م) الذي ترجم القرآن الكريم وأصبحت ترجمته المرجع الأساسي للترجمات الواردة بعدها لسنين عديدة، كما خلفت هذه الترجمة حركة واسعة للتعرف إلى الثقافة الإسلامية وبيان خصائصها الإيجابية والتعرف بصورة موضوعية إلى نبي الإسلام والجدير بالذكر أن هذه الدراسات كانت مشوبة بالخيال والأسطورة حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

مما ساعد ايضاً على نمو وازدهار الدراسات الاستشرافية في بريطانيا، تكوين الجمعيات والمجلات المتخصصة وظهور عدد من المتخصصين في الدراسات الاستشراقية مثل إدوارد وليم لين Edward William Lane (1801-1876) صاحب كتاب (في أخلاق وعادات المصريين الحديثين)[9] وهو من أهم مستشرقي انجلترا وأوروبا في القرن التاسع عشر وقد ترجم أيضا ألف ليلة وليلة إلى الانجليزية بدقة[10].

ويمكن إيجاز أهم خصائص هذه المدرسة في الاتي:

- يمتاز الاستشراق البريطاني بارتباطه بالحركة الاستعمارية ومحاولة ترسيخ السياسات الاستعمارية الإنجليزية في الشرق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الاهتمام باللغة العربية نظرا لمصالح بريطانيا الاقتصادية والسياسية التي تربطها بالعالم العربي.
- تتميز هذه المدرسة بالتعدد والشمول في سائر الدراسات الشرقية (آداب – تاريخ – فلسفة – علوم – فنون وعمارة وآثار).
- تتميز أيضا بالتخصصية الدقيقة، فكل مستشرق له تخصصه الدقيق في أحد مجالات المعرفة الشرقية.
- الاهتمام بدراسة المعارف الخاصة بالمنطقة الجغرافية التي تقع تحت قبضتها الاستعمارية (مصر وأفريقيا السوداء)، مع الإهمال الواضح بشمال أفريقيا نظرا لوقوعه تحت قبضة الاستعمار الفرنسي.

✓ **المدرسة الألمانية**

على الرغم من اتصال ألمانيا بالشرق منذ الحروب الصليبية الأولى وانشقاقها بعد ذلك عن الكنيسة الكاثوليكية إثر حركة مارتن لوثر، فإن الدراسات الاستشراقية الألمانية لم تزدهر إلا في القرن الثامن عشر متأخرة في ذلك عن بقية دول أوروبا. ولم يشارك العلماء الألمان في الدراسات العربية اشتراكا فعليا إلا بعد أن توغل الأتراك في قلب أوروبا التي بدأت تهتم بدراسة لغات العالم الإسلامي[11].

ولعل الصفة البارزة للاستشراق الألماني أنه لم يزدهر نتيجة للاستعمار - كما هي الحال مع فرنسا وإنجلترا وهولندا -أو يرتبط بأهداف دينية تبشيرية كسواه. والاستشراق الألماني يمتاز بالموضوعية والعمق.وساهم المستشرقون الألمان أكثر من سواهم بجمع ونشر وفهرسة المخطوطات العربية، وخصوصاً كتب المراجع والأصول المهمة. ونشر المخطوطات.

هذا ولا يمكن لأي دارس في الأدب والنقد العربيين أن يتجاهل أعمال مستشرقين ألمان كبار مثل كارل بروكلمان CARL BROCKELMANN وكتابه تاريخ الأدب العربي[12] -على الرغم مما ورد فيه من بعض الأخطاء التي حاول دارسون عرب أن يتداركوها عليه كما فعل- عبد الله بن محمد الحبشي[13] لكن يبقى لكتاب بروكلمان فضل السبق في التعريف بالتراث العربي الإسلامي المخطوط في جميع مكتبات العالم، وهو جهد فردي لم نستطع نحن ، للأسف ، فرادى وجماعات أن نقوم به، وقد أحسن الدكتور محمود فهمي حجازي وجمع من المهتمين باللغة الألمانية ، في ترجمته لهذا الكتاب ترجمة وافية أفادت المتلقي العربي.

ويمكن إيجاز أهم خصائص هذه المدرسة في الاتي:

- عدم ارتباط الاستشراق بأهداف سياسية أو دينية أو استعمارية.
- غلبة الروح العلمية والإنصاف على توجهات هذه المدرسة.
- تعدد مجالات البحث وشموليتها لفروع المعارف الشرقية (آداب - لغة – تاريخ – جغرافيا – فنون... الخ).
- الاهتمام بعلم الببليوجرافياو فهرسة المخطوطات وتصنيف وتحرير المعاجم العربية.

2 أهم أعلام الاستشراق:

إن الباحث في آثار الاستشراق بكلياته وجزئياته يخلص إلى أن لكل مدرسة خصائصها و استفراداتها و إسهاماتها و إخفاقاتها.فالمدرسة الفرنسية تعد من أبرز و أنشط المدارس،حيث برز فيها عدة عمداء أسسوا و قعدوا للفكر الاستشراقي ،أذكر من بينهم على سبيل التمثيل لا الحصر:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سيلفستر دي ساسي Antoine-Isaac Silvestre de Sacy (1758-1838) ولد في باريس عام 1758، وتعلم اللاتينية واليونانية ثم درس على بعض القساوسة منهم القس مور، Moore Benjamin والأب بارتاروParteroMsgr ثم درس العربية والفارسية والتركية. عمل في نشر المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية ،وكتب العديد من البحوث حول العرب وآدابهم وحقق عددا من المخطوطات.

كما عين أستاذا للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية عام 1795 وأعد كتابا في النحو ترجم إلى الإنجليزية والألمانية والدنمركية ،وأصبح مديراً لهذه المدرسة عام 1833، وعندما تأسست الجمعية الأسيوية انتخب رئيساً لها عام 1822. ومن أبرز اهتماماته الدروز حيث ألف كتابا حولهم في جزأين. أصبحت فرنسا في عهده قبلة المستشرقين من جميع أنحاء القارة الأوروبية ويقول أحد الباحثين إن الاستشراق اصطبغ بالصبغة الفرنسية في عصره. عمل دي ساسي مع الحكومة الفرنسية وهو الذي ترجم البيانات التى نشرت عند احتلال الجزائر وكذلك عند احتلال مصر من قبل حملة نابليون عام 1797.([14])

2) إل.أسيديو Louis Pierre Eugène Amélie Sédillot(1808-1876)

درس العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية وحضر محاضرات سيلفستر دي ساسي في كلية فرنسا ثم صار سكرتيرا له. اهتم بعلم الفلك عند العرب.ومن أشهر مؤلفاته (خلاصة تاريخ العرب) ويقول فيه العقيقي" وقد أغرق في تفصيل فضل العرب على الحضارة الأوروبية " اهتم بالعلوم عند العرب."([15])

3) أرنست رينان Joseph Ernest Renan (1823-1892)

تلقى تعليمه في المدارس اللاهوتية وتعلم العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، زار المشرق وعاش بلبنان فترة من الزمن، واهتم بالعقيدة الإسلامية . من أبرز اهتماماته دراسته ابن رشد و الرشديين. اهتم باللغات السامية وله موقف مشهور من العقل السامي بأنه لا يصلح لدراسة العلم وقد رد عليه كل من جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في كتابه :" الإسلام والنصرانية بين العلم و المدنية."

4) رينيهباسيه René Basset (1855-1924)

ولد في مدينة لونيفيل ، تعلم اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، تولى منصب أستاذ كرسي اللغة العربية بكلية الآداب بالجزائر ، وكان من اهتماماته التفتيش عن الآثار حيث قام بهذا العمل في تونس. كما درس المعتقدات والأخلاق والعادات في الشمال الأفريقي. عمل محررا في المجلة الأفريقية ، ونشرة المراسلات الإفريقية . ومن المناصب العلمية العمل في هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية. التحق بالعمل في الحكومة الفرنسية حيث عيّن قنصلا في الجزائر.

5) وليم مارسيه William Ambroise Marçais (1874-1956)

عمل مديرا لمدرسة تلمسان وأستاذا فيها وهي إحدى المدارس العربية الثلاث التي أنشأتها فرنسا لتخريج مساعدين لها في أعمالها في إدارة البلاد. اتصل بعلماء الجزائر وتونس والمغرب ودرس لهجات المنطقة . من أهم آثاره نشر كتاب (التقريب والتيسير) للنووي متنا وشرحا وترجمة. كما ترجم (جامع الأحاديث الصحيحة) للبخاري في أربعة أجزاء ، وله كتاب عن اللهجات العربية ، وبحث بعنوان (أصول النثر العربي الفني)[16].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6) لوي ماسنيونLouis Massignon (1883-1962)

ولد في باريس وحصل على دبلوم الدراسات العليا في بحث عن المغرب،كما حصل على دبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية الحية (فصحى و عامية) زار كلا من الجزائر والمغرب.وفي الجزائر انعقدت الصلة بينه وبين بعض كبار المستشرقين مثل جولدزيهر**IgnácGoldziher** وآسين بلاثيوسMiguel AsínPalacios وسنوك هورخرونيه**Christiaan SnouckHurgronje**.

التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة عدة أعوام(1907-1908) وفي عام 1909 عاد إلى مصر وهناك حضر بعض دروس الأزهر وكان مرتديا الزي الأزهري. زار العديد من البلاد الإسلامية منها الحجاز والقاهرة والقدس ولبنان وتركيا. عمل معيدا في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (1919-1924) وأصبح أستاذ كرسي (1926-1954)ومديرا للدراسات في المدرسة العلمية العليا حتى تقاعده عام 1954.

لقد اشتهر ماسنيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي وبخاصة بالحلاج حيث حقق ديوان الحلاج (الطواسين) ATTAWÂSÎN وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان La Passion de Hallaj Martyr Mystique de l'Islam (آلام الحلاج شهيد التصوف) في جزأين وقد نشرت في كتاب تزيد صفحاته على ألف صفحة(ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية) و"له اهتمام بالشيعة والتشيع"[17].

7) ليفي بروفنسالÉvariste MakloufLévi, dit Évariste Lévi-Provençal **(1894-1956)**

ولد في الجزائر حصل على درجة الليسانس من كلية الآداب بالجزائر ،عمل في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط ، وعمل أستاذا للعربية والحضارة الإسلامية في جامعة باريس وفي كلية الآداب بالجزائر. ودعي للعمل أستاذا زائرا في جامعة القاهرة ومن أبرز[18] اهتماماته تاريخ الأندلس.

8) ريجيسبلاشير. Régis Blachère (1900-1973)

ولد في باريس وتلقى التعليم الثانوي في الدار البيضاء وتخرج باللغة العربية من كلية الآداب بالجزائر. تولى العديد من المناصب العلمية منها أستاذ اللغة العربية في معهد مولاي يوسف بالرباط، ومدير معهد الدراسات المغربية العليا (1924-1935)، وأستاذ كرسي الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس وأستاذا محاضرا في السوربون ثم مدير مدرسة الدراسات العليا والعلمية، ثم أستاذ اللغة العربية وحضارتها في باريس.

من أبرز إنتاجه ترجمته لمعاني القرآن الكريم وكذلك كتابه Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XVe siècle de J.-C. (تاريخ الأدب العربي) في جزأين وترجمه إلى العربية إبراهيم الكيلاني ، وله أيضا كتاب(*Essai d'histoire littéraire*) (أبو الطيب المتنبي:دراسة في التاريخ الأدبي) *Abou t-Tayyib al-Motanabbi* ، ترجمه أيضا إبراهيم الكيلاني.[19]

3-أبرز مؤلّفاتهم:

تبقى الموسوعة الاستشراقية الأشمل والأخطر ذات الخمس مجلدات موسوعة القرآن الكريم عن "بريل" **Evert Jan Brill** والتي صدر منها جزءان من الأجزاء الخمسة المشتملة على ألف مدخل كدراسة نقدية استشراقيه للقرآن وعلومه كتبت بأياد مستشرقة واستكتب فيها عدد من العرب والمسلمين المتأثرين بالأفكار

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاستشراقية كمحمد أركون الذي كتب مقدمتها.

وللمستشرقين اهتمام بترجمة معاني القرآن الكريم، فكانت " أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر بدعم من الراهب "بطرس المبجل"[20].

ومن تلك الترجمات الاستشراقية التي" أتمها الأب ماراتشي**LouisMarachi** 1698م، ثم تلتها ترجمة المستشرق الألماني "جوستاف فلوجيل" **Gustave Flageul**إلى اللغة اللاتينية" [21]، ومن أشهر الترجمات الإنجليزية " ترجمة "جورج سيل" عام 1734م، وترجمة "آربري" 1955م، و"بالمر" عام 1880م، و"بل" 1939م " [22]، أضف إلى ذلك الترجمةالشهيرة إلى اللغة الألمانية ترجمة "رودي بارت"، وأبرز الترجمات إلى الفرنسية "كازيميرسكي" 1832م، و"مونتيه" 1929م، و"بلاشير" 1947م " [23]، هذا وقد "حملت تلك الترجمات أخطاء لغوية، وطعونا وشبهات استشراقية أشار إليها عدد ممن حصر ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم " [24].

أمافي مجال المعاجم يبقى الأبرز هو: المعجم المفهرس للقرآن الكريم للمستشرق الألماني جوستاف فلوجل 1802 – 1870م، سماه: نجوم الفرقان في أطراف القرآن، اعتمد عليه محمد فؤاد عبد الباقي في معجمه المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

وفي نفس المجال يبرز عمل المستشرق الفرنسي "جول لابوم" **JulesCoste-Labaume** في كتابه: "تفصيل آيات القرآن الكريم، معما في هذين العملين من أخطاء لغوية ومنهجية " [25].

كماظهر من تتبع ذلك النتاج العلمي الاستشراقي في مجال الدراسات القرآنية - وخصوصا التفسير – إبراز المستشرقين الكتب المنحرفة من كتب الفرق الباطنية والمعتزلة، مع تمجيد طريقتهم في التفسير، واعتبار تلك التفاسير هي التفاسير الأمثل وأهلها أصحاب العقل الحر، مع ذمهم وانتقاصهم لكتب التفاسير بالمأثور من كتب السلف رحمهم الله.

يظهر جليا من خلال عناوين تلك الكتب أو من خلال تتبع ما كتبه المستشرقون في ثنايا كتبهم، ويبرز ذلك بجلاء فيما كتبه "جولد زيهر"**Ignaz Goldziher** في كتابه:**Courants de l'Interprètation Islamique** (مذاهب التفسير الإسلامي) من تمجيد لكتب الفرق المنحرفة كالباطنية والمتصوفة، والشيعة، والمعتزلة، وثنائه على الظواهر المنحرفة في حركة التفسير العصرية المنحرفة.

وفيما يلي بيان تقريبي بأهم الترجمات المعروفة للقرآن الكريم من قبل غير المسلمين:

إلى	عدد الترجمات
اللغة الألمانية	14
اللغة الإنجليزية	10
اللغة الإيطالية	10
اللغة الروسية	10
اللغة الفرنسية	9
اللغة الأسبانية	9
اللغة اللاتينية	7

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللغة الهولندية	6

وقد حصى حتى الآن ترجمات للقرآن الكريم في مائة وإحدى وعشرين لغة في أنحاء العالم كله "[26].

نرى مما سبق أن اهتمام غير العرب بالقرآن الكريم و السنة النبوية و التراث الإسلامي كرس لمزيد من الترجمة و تخصيص الحملات و البعثات.لقد تفطنوا إلى أن السبيل الوحيد لإتقان هذه الترجمات و اللعب الحر فيها لن يتأتى إلا بإتقان اللغة العربية و من ثم علوم القرآن و التفسير.

4-دراسة المستشرقين للقرآن و علومه:

اهتم المستشرقون بدراسة علوم القرآن والتفسير اهتماما بالغا على اعتبار كونها علوما خادمة للقرآن ومعينة على فهم مقاصده و أغراضه، ولاشك أن القرآنيات تشكل المجال الخصب الذي تواردت عليه أقلام كثير من المستشرقين سواء بالدراسة والبحث أو بالتحليل والنقد. ولقد بات من المألوف أن كل ما تعلق بالقرآن في دراسات القوم لا يمكن الاعتداد به البتة؛ لأنه لا محالة محطم للمسلّمات التي يجزم بها المسلمون، ومشكك في البديهيات التي يؤمنون بها، وأصبح في حكم اليقين أن عالم المشرقيات عندما يتأهب لدراسة القرآن الكريم يضع نصب عينيه دعوى بشرية القرآن؛ محتملا أن يكون مصدره من كل جهة إلا من السماء، و بالتالي، وبناء على هذا الاعتقاد الذي يصبح عند الرجل مسلمة بديهية، تأتي كل أبحاثه وجميع دراساته قد استوت على أساس غير صحيح، وانحرفت عن المنهج الصائب الذي يفرض نوعا من التعاطف، أو على الأقل نوعا من الاحترام النسبي للمصدر الغيبي الذي ينبني عليه الوحي القرآني. إلا أن هذا لا يمنع من الاطلاع على ما يقال في حق القرآن الكريم، وبالتالي تبين مناهج وآليات البحث لديهم.

وفي المقابل لا ننكر تغير المنهج الاستشراقي في هذا المجال نحو الأفضل و الأحسن، فثمة فرق بين الاستشراق القديم و الاستشراق المعاصر، لكنه فرق في الدرجة فقط وليس في النوع، لقد أضحى الاستشراق المعاصر أقدر على تفهم واستيعاب بعض قضايا ومسائل علوم القرآن وإيحاءاتها عكس ما كان سائدا قبل مطلع القرن العشرين؛ حيث كانت أبحاث المستشرقين القرآنية يطبعها منهج سافر يوجه من خلاله الشتم والسب في حق القرآن الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام.

فلا يخف على أحد أنه بعد الاجتهاد في الأمر والنظر مليا في اتجاهات الاستشراق وتحولاته، تبين أن رجلا لقب بشيخ المستشرقين في الدراسات القرآنية، كان يمثل فعلا حلقة وصل بين المنهج الاستشراقي القديم والمنهج الاستشراقي المعاصر، ويمثل فكر الرجل الذي هو تيودور نولدكهTheodorNoldeke في هذا المجال كتابه الشهير (تاريخ القرآن) Geschichte des Qorans الذي يعد دستور المستشرقين في معرفة تاريخ القرآن، حتى أضحى الكتاب أبرز المصادر التي لا يستغني عنها الباحثون الغربيون في ميدان القرآنيات، فهو عرض تاريخي مفصل لكل المسائل والموضوعات التي تتصل بتاريخ القرآن الكريم وعلومه ومختلف مباحثه وقضاياه، منذ نزول الوحي إلى عصر المؤلف.

ومن أسباب شهرة الكتاب إتباع نولدكه لطريقة في التأليف استرعت انتباه زملائه المتخصصين في سائر معاقل الإستشراق في أوربا وأمريكا؛ فقد حرص على إبراز سائر وجهات النظر الثابتة في مسألة من مسائل علوم القرآن؛ معتمدا في ذلك على استقصاء مختلف الآراء من مصادر عربية وأجنبية شهيرة ومغمورة،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مخطوطة ومطبوعة على حد سواء، كما أنه اتبع في عملية الاستقصاء والاستقراء، ثم الاستدلال منهجا أكاديميا صارما لم يكن معهودا من قبل، وبذلك أمكن القول بأن نولدكه قد وضع منهجا جديدا في الدراسات القرآنية. لعل أبرز معالمه الرجوع مباشرة إلى المصنفات العربية اللصيقة بمجال القرآنيات، في الوقت الذي كان فيه المنهج الاستشراقي القديم يخلط بين شيء قليل مما هو مبثوث في المصادر، وما كانت تمليه تخيلات وتكهنات المستشرقين.

بيد أن الحقيقة المتمثلة في استعمال نولدكه لأدوات بحث جديدة، ولمنهج صارم في الدراسة والتحليل لا يمكنها أن تحجبنا عن استبصار حقائق أخرى تتمثل في سوء توظيف تلك الأدوات البحثية على نحو مبيّت، فضلا عن القصور والخلل في المنهج المطروق.

ويمكن عد كتاب نولدكه منعطفا بارزا في سياق البحث الاستشراقي في الدراسات القرآنية، ومما زاد تكريس هذا الأمر " اهتمام المستشرقين المتأخرين كافة بالكتاب، واتكاءهم عليه في أبحاثهم ودراساتهم، حتى إنه لا يكاد يخلو مؤلف في الموضوع من الاعتماد على الكتاب ومتابعة صاحبه فيما ذهب إليه من آراء ومواقف" [27]، ولا يمكن أن ننسى بهذا الصدد دور مدرسة نولدكه الألمانية في حقل القرآنيات، وهي مدرسة اشتهرت على غرار غيرها من المدارس الأوروبية؛ حيث " برز فيها ثلاثة رواد رابعهم شيخهم نولدكه الذي عهد إلى هؤلاء التلامذة شفالي Friedrich Schwally، وأوتوبرتزل Otto Pretzel، وبرجشتراسر Gotthelf Bergsträsser مهمة تنقيح الكتاب والتعليق عليه، وهو ما حصل فعلا عندما تم إخراج جزأين منه عام 1919م، في حين تم إصدار الجزء الثالث عام 1926م" [28].

لقد فتح نولدكه بكتابه هذا بابا ولجه كثير من المستشرقين النزاعين إلى دراسة القرآن الكريم، على نحو يرى أن الدراسات القرآنية لا يمكن أن تبحث بمعزل عن الدراسات اللغوية والمناهج الفيلولوجية واعتماد المصادر القديمة. ويمكن القول بأن كتاب نولدكه كان فصلا فاصلا بين عهد كان يدرس فيه القرآن على أساس أنه هرطقة ومجموعة من التخيلات والتصورات جاء بها نبي مزيف، وبين عهد أخذ ينظر فيه إلى القرآن بقدر _ ولو ضئيل _ من الاحترام على أساس أنه كتاب المسلمين المقدس، الذي يجب أن يدرس أسلوبه وتبحث مضامينه وينقب عن حلقاته. غير " أن المستشرق الذي يدرس القرآن ولا يؤمن بكونه من عند الله تعالى مهما حاول التجرد من الهوى والتزام شيء من الموضوعية و الحياد، فإنه واقع لا محالة في أخطاء فظيعة ونظريات واهية تتأرجح بين سوء الفهم تارة، وسوء النية تارة أخرى، فهذا نولدكه نفسه لا يتردد في الحكم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله _ وبئس القول: (صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوشة الأسلوب) " [29].

غير أنه الاعتراف بأن المستشرقين المعاصرين لنا ابتداء من النصف الثاني من (ق 20م) هم أقدر على تحاشي أساليب الطعن والتجريح في حق القرآن الكريم ونبينا عليه الصلاة والسلام، فقد فرضت علاقات هؤلاء بالدول العربية والإسلامية وبشخصياتها العلمية قدرا من الاحترام و التعاطف، مما أمكن معه القول بأن قصور المناهج الاستشراقية المعاصرة في مجال القرآنيات أمر قد لا يظهر جليا لغير القلة من المتخصصين في علوم القرآن ممن يستطيعون اكتشاف مواطن الخطأ والضعف في إنتاجات المستشرقين في هذا الميدان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهذا مونتغمري وات WILLIAM MONTOGMERY WATT يقول في مقدمة كتابه ((محمد في مكة)) MUHAMMAD AT MECCA وهو يوضح منهجه وطريقته في التعامل مع القرآن الكريم: " فيما يتعلق بالمسائل الكلامية التي أثيرت بين المسيحية والإسلام، فقد جهدت في اتخاذ موقف محايد منها، وهكذا وبصدد معرفة ما إذا كان القرآن كلام الله أو ليس كلامه امتنعت عن استعمال تعبير مثل (قال تعالى) أو (قال محمد) في كل مرة أستشهد فيها بالقرآن، بل أقول بكل بساطة: (يقول القرآن). وأقول لقرائي المسلمين شيئا مماثلا، فقد ألزمت نفسي، برغم إخلاصي لمعطيات العلم التاريخي المكرس في الغرب ألا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية " [30].

والرجل على هذا إذن تجاوز طريقة المستشرقين القدامى الذين كانوا ينسبون نصوص آي القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم بقولهم (قال محمد أو ذكر محمد...)، لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يقول: (قال الله تعالى)؛ لأنه لا يؤمن بأن القرآن كلام الله. يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون Maxime Rodinson : " لو سايرت المسلمين في إيمانهم، ولو أخفيت عنهم حقيقة رأيي حول القرآن لكان ذلك أدعى لي إلى ربط علاقة وطيدة بيني وبين المسلمين وبين الحكومات الإسلامية، ولكنني لا أريد أن أخدع أحدا، وبإمكان المسلمين الامتناع عن قراءة كتابي (يقصد كتابه عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم)، والاطلاع على تفكير غير المسلم حول هذه القضية ولهم الحق في ذلك... ، فأنا لا أعتقد طبعاً أن القرآن هو كتاب الله، إذ لو كان الأمر كذلك لأصبحت مسلما..." [(31)].

من جهة ثانية لا بد من الإشارة إلى أن هناك فئة من المستشرقين ممن تبين لهم عقم هذا المنهج التاريخي البالي وانسداد طرقه وعدم جدواه قد نحوا منحى جديدا في دراساتهم مستخدمين طرائق العلوم الإنسانية المعاصرة والمناهج التحليلية في نقد النصوص.

هذه المحاولات قليلة ونادرة لا تتجاوز بعض الكتب والأبحاث المنشورة في مجلات المستشرقين العالمية؛ لذلك يصعب الحكم مبكرا على مدى جديتها وجدواها. ويبقى أن حصيلة الدراسات القرآنية المعاصرة التي أنجبتها معاقل الاستشراق الغربية والتي تكفل لنا تكوين نظرة عامة عن مناهج المستشرقين المعاصرين في الدراسات القرآنية لا تتعدى كتب كبار المستشرقين التي اهتمت بالحديث عن تاريخ القرآن و علومه، أو بموضوعات لها علاقة لصيقة بذلك.

5 منهج المستشرقين في البحث:

لقد وقع المستشرقون أثناء دراستهم وتحليلهم للنص القرآني في تأويلات وتناقضات مخالفة للصواب وهذا يرجع إلى عدة أمور منها:

-عدم الموضوعية في الدراسة والتحليل بحيث لم يلتزم هؤلاء المستشرقين بقواعد البحث العلمي القائم على المقاييس الدقيقة، فهؤلاء وضعوا النتيجة مسبقا ثم شرعوا بصياغة المقدمات، وهذا مخالف للأصل.

-عدم الفهم للغة العربية: إن دراسة المستشرقين للنص القرآني لم تكن دراسة متعمقة وجدية بل كانت سطحية وهذا مما جعلهم يقعون في تناقضات في الفهم والاستنباط.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-عند قراءة النص القرآني و تحليله لم يتحلوا بالحيادية والانفتاح الفكري والتمسك بالروح العلمية في البحث و التثبت بالرؤية الأحادية المتعلقة بالنتائج، و تغاضيهم عن الإعتراف بالنتائج وإن كانت مخالفة لتصوراتهم.

-عدم التزامهم بالأمانة العلمية في البحث و"كونهم حاقدين متعصبين لآرائهم؛ بحيث يبترون النص القرآني ولا يدرسونه دراسة كاملة " [(32)].

-إصدارهم الأحكام النهائية على النص القرآني دون الاستدلال بالبراهين والحجج التي تثبت ما يقولونه.

ويذكر د. عبد الصبور شاهين أسباب أخطاء المستشرقين في البحث فيقول: " وآفة المستشرقين أنه[33] م يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق ويقيسون الماضي الذي لم يكن جزءا من تاريخهم، وبالتالي لم يكن من مكونات ضمائرهم بمقياس حاضرهم مع تباين المكان والزمان والعقلية والروح، وآية ذلك أنهم يغضون أبصارهم عن الطابع الميتافيزيقي الذي نشأت في ظله أحداث التاريخ القرآني وعلى عهد النبوة، ويرفضون مناهج المسلمين في نقد الأخبار ورواتها". [34]

ويعترف بعض علماء المستشرقين أن طبيعة الفهم الاستشراقي يختلف عن فهم الباحثين المسلمين والدليل على ذلك ما قاله المستشرق الألماني د. ديلكويسموراني Duclos Morani:" الفهم الاستشراقي للقرآن يختلف كل الاختلاف عنه عند المسلمين عامة، والباحثين المسلمين خاصة، وذلك ما أثار توترا؛ بل حقدا، إن صح التعبير بين الطرفين الإسلامي والأوروبي، إن المستشرق الذي يدرس نص القرآن وعلومه لا ينطبق من الحقيقة المطلقة لدى المسلمين، أن هذا النص وحي منزل، أي لا يدرسه من زاوية الإيمان، بل من زاوية العلم المنفصل عن جميع ما يدخل في باب الإيمان والعقيدة، والاستشراق يعالج النص القرآني وفقا لمعايير علوم الديانات العامة، ووفقا لعلوم التاريخ، فمن هنا يمكن القول: إن نص القرآن في رأي المستشرقين ليس إلا وثيقة تاريخية ثمينة باعتباره مبدأ أساسيا في إيمان المسلمين وعقيدتهم، وهذا ما ينبغي على الباحثين المسلمين مراعاته عند القراءة في دراسات المستشرقين أو مناقشتهم حتى لا يحصل الخلل في الفهم والنتائج، والمدارس الاستشراقية تختلف باختلاف الدول، فالاستشراق الإنجليزي يختلف عن الاستشراق الأمريكي أو الألماني فلكل منهم طبعته الخاصة." [35]

ويضيف موراني: " أن أزمة الاستشراق هي أزمة المناهج وليست أزمة التطبيق، بمعنى أن المستشرقين بعد عصر النهضة بدؤوا يخضعون مصادر الإسلام إلى مفاهيم غربية مما جعل حقائق الإسلام تظهر في غير ثوبها، بل تصبح مشوهة المظهر مبتورة الأطراف،لذلك لا بد من غربلة تلك المناهج غربلة دقيقة وأن نشير إلى مكمن الخطأ فيها" [36].

إن المنهج التأويلي الهرمينوطيقي الذي اعتمده المستشرقون بقصد و بغير قصد،حرف القرآن و السنة و التاريخ العربي و الإسلامي.لقد كان عملهم ممنهجا و مقصوداً تجلى ذلك أكثر من مرة في ترجماتهم والتي لا يسع المقال هنا لعرضها جميعا وقد تكون لنا وقفة أخرى عليا لم لا في مقالاتنا المقبلة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مكتبة البحث

[1]-دراسات العربية، الإسلامية في أوروبا، ميشا جحا، ج1، ص82، معهد الأسماء العربي.اكس-مرسيليا1998.

[2]-المستشرقون ومشكلات الحضارة، عفان صبرة، ص9، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980.

[3]-الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، ص220، ط6، 1973

[4]-نقد الخطاب الإستشراقي،ساسي سالم الحاج، ج1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002: ، ص 107

[5]- سلسلة الثقافة المقارنة "الإستشراق"، روبيرمنتران: ج2، 1987،، ص 34.

[6]-موسوعة المستشرقين،عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، 1984.ص28

[7]-مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ،محمود محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي، 1984، ص207.

[8]-أسماء المستشرقين ،يحيى مراد: ، دار الكتب العلمية، بيروت 2004، ص32

[9]-قراءة في كتاب "المعتزلة ثورة الفكر الإسلامي،سهيلقاشا دار التنوير،بغداد، ص 20

[10]-زيارة جديدة للإستشراق،أنور محمود زناتي، مكتبة الأنجلو المصرية، 2006 م.

[11]-جهود المستشرقين في التراث العربي،محمد عوني عبد الرؤوف،المجلس الأعلى للثقافة 2004 ص 23

[12]Carl Brockelmann: Geschichte der ArabischenLiteratur, Leiden 1938

[13]-تصحيح أخطاء بروكلمان،عبدالله بن محمد الحبشي، المجمع الثقافي . أبوظبي، 1998،ص45.

[14]-الإستشراق بين الموضوعية و الإفتعالية، قاسم السامرائي،دار الرفاعي ،الرياض 1403،ص87

[15]- موسوعة المستشرقين، مرجع سابق ص 169.

[16]-نفسه،ص 252.

[17]-نفسه ص 168.

[18]-نفسه ص 174

[19]-نفسه ص 164

20-نفسه، ص9.

21- الظاهرة الإستشراقية و أثرها على الدراسات الإسلامية،ساسي سالم الحاج، ط1، 1991، 311/1.

22-الإستشراق و القرآن العظيم محمد خليفة، الاستشراق ترجمة: مروان، ط1، 1414هـ، ، ص120 – 122.

23 -الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مرجع سابق، 312/1.

24- المستشرقون و ترجمة القرآن الكريم،محمد صالح البنداق، ط2، 1403هـ/ 1983م، ص89.

25- جهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي،عبد الستار الحلوجي ص728 – 730.

26-الإستشراق والخلفية الفكرية، محمود حمدي زقزوق،2004،ص65.

[27]-دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية أضاليل وأباطيل ،د. إبراهيم عوض،1998. ص163

[28]-Theodor Noldeke: Geschichte des corans (GdQ): Leipzig 1919 (Tome1-2) (2/56)

[29]-GdQ 1/19.

[30]-محمد في مكة،منتغمري وات، تعريب شعبان بركات، 1995ص 5.

[31]-M. Rodinson: Mahomet. Paris 1961 p 256.

[32]-مناهج وأساليب البحث العلمي، النظرية والتطبيق، يحي عليان وعثمان غنيم، ص215، 2000.

[33] عبد الصبور شاهين

[34]-قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، نقد مطاعن، ورد شبهات، د. فضل عباس، ص18، ط2، 1989.

[35]-تاريخ الإستشراق الألماني،مجلة ضمن الفكر الإسلامي،أحمد عبد السلام،العدد1983،،31.ص 190

36-شبكة التفسير والدراسات القرآنية وملتقى أهل التفسير، موراني بون، ألمانيا، الشبكة العنكبوتية، 2005/2/2م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com